قضايا علم اللغة النفسى فى الدرس اللغوى القديم

يعد علم اللغة النفسى أحد العلوم اللغوية الحديثة التى نشأت من خلال الالتحام بين علم اللغة وعلم النفس؛ فهو يمثل أحد العلوم البينية التى تمزج بين الدراسة اللغوية والدراسة النفسية.

ومن ثم عرفه العلماء بقولهم هو" فرع من فروع علم اللغة يدرس العلاقة بين السلوك اللغوى والعمليات النفسية التى يعتقد أنها تفسرذلك السلوك"(١)

وقد اهتم علم اللغة النفسى بدراسة طبيعة نشاة اللغة الانسانية وطريقة تطور اللغة عند الطفل" إلى جانب تعلم اللغات الأجنبية كما يدرس عيوب النطق"(٢) ولكن يعد أهم ما قدمه علم اللغة النفسى للدراسات اللغوية كونه " يدرس ظواهر اللغة ونظرياتها وطرق اكتسابها وإنتاجها، من الناحية النفسية مستخدما أحد مناهج علم النفس"(٣)

وحين يعمد الباحث اللغوى إلى دراسة النصوص دراسة لغوية نفسية ، من خلال أدوات علم النفس، فإنه يتحرى أن تكون تلك الظاهرة اللغوية "مرتبطة حال دراستها بعملية ما من العمليات النفسية كالاحساس أو الانتباه أو الإدراك أو التكرار أو الفهم"(٤) ، لكى نضمن انتماء تلك الدراسة إلى علم اللغة النفسى .

ولعل الاختلاف بين علم اللغة النفسى بوصفه فرعا من فروع علم اللغة ، وبين علم النفس اللغوى بوصفه فرعا من فروع علم النفس، يكمن فى استراتيجية الدراسة نفسها.
إذ إن عالم النفس يدرس السلوك اللغوى فى إطار الدوافع النفسية على معيار الصحة والمرض ؛ فيبحث فى دوراللغة فى التدليل على وجود المرض النفسى من عدمه، وكشف أساس المرض كما يبحث فيها بوصفها دليلا على الشفاء والتعافى.

---

(١) عبدالعزيز بن إبراهيم العصيلى ،النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية ، الرياض ، مطابع التقنية ١٤٢٠هـ ، ص٤٢ .

(٢) جمعة سيد يوسف ، سيكولوجية اللغة والمرض العقلى ، الكويت ، عالم المعرفة ، ١٩٩٠م ، ص١٦

(٣) جلال شمس الدين ، علم اللغة النفسى المناهج والنظريات ، الأسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ٢٠٠٣م،ص١٠ .

(٤) جلال شمس الدين ، علم اللغة النفسى ، صـ ١٢

بينما يبحث عالم اللغة عن التفسير النفسى الذى يكمن خلف عمليات انتاج الكلام واستقباله وعلاقة ذلك بالدوافع النفسية التى تقف خلف العملية الكلامية لا فى إطار الصحة والمرض بل فى إطار معايير نصية تتصل بمفاهيم لغوية مختلفة مثل وضوح الرسالة أو صدقها فى ضوء مقولات علم النفس الخاصة بالفهم والإدراك والانتباه والتذكر.

ذلك أن علم اللغة النفسى فى إطار تحليل النصوص، يعدعلما وظيفيا تطبيقيا يسهم فى تنمية نظرية عامةعن النشاط اللغوى، والممارسات اللفظية للنصوص وطبيعة العمليات النفسية التى تسبق التكوين اللفظى.

وعلى هذا فإن علم النفس اللغوى يلتقى مع علم اللغة النفسى فى تلك المنطقة التى تهدف إلى معرفة الدوافع السيكولوجية ، لكن الاختلاف يكمن فى كيفية توظيف هذه الدوافع بين عالم اللغة وعالم النفس.

وترجع بدايات علم اللغةالنفسى فى العصرالحديث إلى منتصف العشرينيات من القرن ، عندما تبنى العالم اللغوى بلومفيلد

أفكار المدرسة النفسية السلوكية، حيث " استطاع أن يكون مدرسة لغوية نفسية مستقلةذات معالم واضحة... وهى تمثل الاتجاه السلوكى البنيوى الذى جمع بين المذهب البنيوى فى علم اللغة والمذهب السلوكى فى علم النفس.

وبناءعلى ذلك رأى بلومفيلد أن اللغة مظهرمن مظاهر السلوك الانسانى الآلى الخاضع لقانون المثيروالاستجابة دون ارتباط بالتفكيرالعقلى "[٥]

لقداعتنق بلومفيلد المنهج التجريبى فى ملاحظة ودرس السلوك اللغوى معتقداأن اللغة تمثل إحدى العادات السلوكية التى يمكن إخضاعها للتجربة العلمية، والبحث المعملى ومن ثم اتجه إلى دراسة الأبنية اللغوية فقط، بوصفها تمثل المبنى الظاهرى الذى يمكن أن يخضع للتجريب والملاحظة، متجاهلا فى ذلك البعد العقلى للغة، نابذا المنهج الاستنبطانى الذى تبناه تشومسكى فيما بعد.

---

(٥) عبد العزيزبن إبراهيم العصيلى ، النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية، الرياض ، مطابع التقنية ، ١٤٢٠ هـ ، صـ٤٢ .

ثم جاءت دراسات تشومسكى كرد فعل مغايرلأفكارالمدرسة البنيوية السلوكية التى كرست لفكرة حتمية السلوك اللغوى بوصفه استجابة لمثير ما متجاهلة البعد العقلى للنشاط اللغوى.

وقد بزغت أفكار تشومسكى النفسية " فى نهاية الخمسينيات عندما بدأ عالم النفس المشهور جورج ميللر التعاون مع تشومسكى فى دراسة بعض الجوانب النفسية من اللغة"(٦)

لقد قدمت نظرية تشومسكى تفسيرا للسلوك اللغوى يعتمد على العمليات النفسية والعقليةالتى تقف خلف هذا السلوك؛" حيث وقفت نظرية تشومسكى ١٩٥٧ باعتبارها الخلفيةالأساسية لفهم تشعب دراسات اللغة فى بعدها النفسى ، وأوضح مفهوم تشومسكى الخاص بمستويات المعالجة المتضمنة فى فهم العلاقات النحوية (النحو التحويلى) أن اللغة عمليةسيكولوجية نشطة ... تنشأ عن مجموعة سلبية (محدودة) من القواعد النحوية...

وقد بذل علماء النفس المعرفيين مجهودات ضخمة، للبرهنة على الصدق السيكولوجى لعلم اللغةكما قدمه تشومسكى"(٧)

وعلى الرغم من حداثة علم اللغة النفسى فإن المتأمل فى جهود العلماء العرب القدامى ليتبين له أنهم قد قطعوا شوطا كبيرا فى تأصيل هذا العلم وإن لم ينصوا عليه .

وقد كانت بدايات هذا العلم مع إشارات القرآن الكريم للقول النفسى ، حيث جاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تشيرإلى هذاالمعنى مما كان حافزا للعلماء للبحث فى هذا المجال.

إذ دائما ما كان القرآن الكريم هو الباعث الأول للحراك الفكرى والثقافى الذى أدى إلى نشأة علوم العربية مثل النحووالصرف والبلاغة وعلوم اللغة .

ومن الآيات القرآنية التى تحدثت عن القول النفسى قوله تعالى ﴿ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً ﴾ (يوسف /٧٧) " فإن (قال) بدل من (أسر)

(٦) جلال شمس الدين ، علم اللغة النفسى ، صـ١٠

(٧) جمعة سيد يوسف ، سيكولوجية اللغة والمرض العقلى ، الكويت ، عالم المعرفة ، يناير ١٩٩٠ ، العدد ١٤٥، ص١٨.

أو استئناف بيانى ،كأنه قيل : فماذا قال فى نفسه فى ذلك الإسرار؟ ، فقيل : قال أنتم شر مكانا ، وعلى التقديرين فالآية دالة على أن للنفس كلاما "[٨] .

"وقوله تعالى ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى ﴾ (الزخرف /٨٠) ، وفسر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم السربما أسره ابن آدم فى نفسه .

وقوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ (الأعراف : ٢٠٥) وقوله تعالى ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا﴾ (آل عمران: ١٥٤) أى يقولون فى أنفسهم كما هو الأسرع انسياقا إلى الذهن والآيات فى ذلك كثيرة .

ومن الحديث "ما رواه الطبرانى عن أم سلمة أنهاسمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد سأله رجل فقال: إنى لأحدث نفسى بالشئ لو تكلمت به لأحبط أجرى فقال : لا يلقى ذلك الكلام إلا مؤمن، فسمى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الشئ المحدث به كلاما مع أنه كلمات ذهنية والأصل فى الإطلاق الحقيقة ولا صارف عنها "[٩]

إذن لقد كانت إشارات القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف تمثل البازغة الأولى التى لفتت انتباه القدماء إلى مفهوم القول النفسى أو الكلام النفسى . ثم تنامت هذه الإشارات فيمابعد لتصبح مدخلا إلى مفاهيم نفسية تتصل بقضايا علم اللغةالنفسى بالمفهوم الحديث.

وأشير فى هذا المقام إلى أن الإشكاليةالخاصة بقضية خلق القرآن وهل هو قديم أم حادث وهل هو مخلوق أم غير مخلوق .

قد خلفت تراثا لغوياعظيما يتصل بالعديدمن المفاهيم الخاصة بالدراسات اللغوية النفسية الحديثة،وهو الأمر لذى يستحق الدراسة.

وعلى الرغم من أن الناظر للوهلة الأولى لهذه القضية يظن أنها ترجع إلى جدل دينى بحت ، إلا أن المتأمل لهذا التراث الفكرى اللغوى الذى تغلغل فى كتب القدماء ليتبين أنهم قد حازوا قصب السبق فى الحديث عن القضايا اللغوية النفسية.

---

(٨) العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيدمحمود الألوسى، روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، القاهرة ، المطبعة المنيرية ، ج١ ص ١٦.

(٩) الألوسى ، روح المعانى ،ج١ ، ص١٧.

وإن كان منشأهذا الحديث هو حراك دينى بحت إلا أنه قد تطرق للعديد من القضايا الحيوية التى تعرض لهاعلماء النفس وعلماء اللغة المحدثين .

ولعل أهم ما قدمه العلماء العرب القدامى فى هذا الشأن هو إثباتهم للوجود الذهنى عموما، وتحديدمفهوم الكلام النفسى بوصفه منتميا إلى ذلك الوجود الذهنى ، إلى جانب ترسيمهم لثنائية التكلم والكلام ، فإذا كان تشومسكى رائد الدراسات اللغوية النفسية قد أثبت ثنائية الكفاءة والأداء فى تقديمه لنظريته عن البنية السطحية والبنية العميقة .

فإن العرب القدماء كانوا أسبق فى تقديم نظرية لغوية نفسية تتقوم من خلال الوجود النفسى أوالذهنى والذى يقابل مفهوم البنية العميقة لدى تشومسكى، وهو محل ذلك الكلام النفسى الذى يمثل نشاطا لغويا قبليا تخطيطيا يسبق الكلام اللفظى.

لقد أثبت القدماء مفهوم الوجود الذهنى للأشياء الخارجية، ومفهوم الوجود الذهنى هو مفهوم نفسى ، تتقوم به البنية الداخلية للجملة، أوالبنية العميقة للجملة بمفهوم تشومسكى أو الشكل الداخلى للجملة بتعبير همبولدت حيث رأى القدماء أن :

" جميع الاعتبارات الصادقة التى لها منشأ موجود فى الخارج لا وجود لها فى الخارج بل هى موجودة ذهنا فى نفسها"(١٠)

ومن هنا فقد عابوا على أصحاب علم الكلام إنكارهم لفكرة الوجودالذهنى أو النفسى فقالوا "إن إنكار المتكلمين للوجودالذهنى مكابرة...[وأنهم قد] قالوا بالوجودالذهنى وهم لا يشعرون"(١١) .

والملاحظ أنه قد استقر عند القدماء إثبات الكلام القائم بالنفس ،والذى ينتمى لذلك الوجود الذهنى حيث جاء عن " إمام الحرمين فى الإرشاد:

"ذهب أهل الحق إلى إثبات الكلام القائم بالنفس وهو القول أى المقول الذى يدور فى الخلد وهو اللفظ النفسى الدال على معناه بلا فكاك "(١٢) .

---

(١٠) جمال الدين أبو محمدعبدالرحيم بن الحسن الإسنوى الشافعى ، نهاية السول شرح منهاج الوصول ،ط١، بيروت ،دار الكتب العلمية ،١٩٩٩م،ص ١٤.

(١١) نفسه ، ص١٥.

(١٢) الألوسى ، روح المعانى، ج١ ، ص١٥ .

ثم إنهم قد فرقوا بين القدرة والأداء من خلال تلك الثنائية المشارإليها بين التكلم والكلام ؛ فالتكلم يمثل القدرة الذاتية على ترتيب وتركيب الكلمات أى إنتاج الكلام بينما يمثل الكلام التطبيق العملى لتلك القدرة.

وقد جعلوا لهذه الثنائية جانبا نفسيا ، بمعنى إثبات أربعة مفاهيم لثنائية التكلم والكلام ، يقول الألوسى :

"إن الانسان له كلام بمعنى التكلم الذى هو مصدر وكلام بمعنى المتكلم به الذى هو حاصل بالمصدر... وكل من المعنيين إما لفظى وإما نفسى . فالأول من اللفظى فعل الانسان باللسان وما يساعده من المخارج والثانى منه : كيفية فى الصوت المحسوس.

والأول من النفسى : فعل قلب الانسان ونفسه الذى لم يبرز إلى الجوارح ، والثانى منه : كيفية فى النفس إذ لا صوت محسوس عادة فيها وإنما هو صوت معنوى مخيل ...

فمعناه الأول : تكلم الانسان بكلمات ذهنية وألفاظ مخيلة يرتبها فى الذهن على وجه إذا تلفظ بها بصوت محسوس كانت عين كلماته اللفظية

ومعناه الثانى : هو هذه الكلمات الذهنية والألفاظ المخيلة المرتبة ترتيبا ذهنيا منطبقا على الترتيب الخارجى "(١٣)

وقد رأى القدماء أن التفاوت فى القدرة الذاتية على التكلم إنما يصدر عن (ملكةنفسية) والملكةهى مفهوم نفسى يستطيع من خلاله المتكلم ترتيب كلماته النفسية وفقا لتركيب معين،يقول الإسنوى:

"كل كلام من كلام البشر إنما نسب لمن رتبه فى نفسه كلمات نفسية بملكته التى هى كيفية راسخة تضاد الخرس الباطنى يقتدر من قامت به على ترتيب تلك الكلمات النفسية وإن لم يتلفظ به ولم يكتبه ولا ينسب لمن لم يرتبه بملكته فى نفسه ولو تلفظ به ألف مرة"(١٤)

---

(١٣) الألوسى ، روح المعانى ، ج١ ص١٦ .

(١٤) ابى حفص عمر بن على بن عادل الدمشقى الحنبلى ، اللباب فى علوم الكتاب ، بيروت ، دار الكتب العلمية،١٩٨٨ ص١٣.

إذن الملكة النفسية مفهوم نفسى يتصل بقدرة الانسان على ترتيب الكلمات على مستوى التركيب بوصفها " صفة الكلام القائمة ... التى تضاد الخرس الباطنى " [١٥]

ومن هنا يكون مفهوم الملكة بوصفه مفهوما نفسيا هو المحددالرئيسى لانتاج الكلام وعملية النظم لأن النظم يخضع فى المقام الأول للتركيب والملكة النفسية تشيرإلى القدرة التركيبية لدى المتكلم ومن ثم فإن الملكة النفسية تمثل الملكة المحددة لعملية النظم.

وعلى هذا فإن هذه الملكة تحدد هوية النص وانتمائه لصاحبه فمهما تلفظ الفرد بنصوص فهولايستطيع أن يدعى نسبتها إلى نفسه مادام لم يرتب النص ترتيبا نفسيافى ذهنه بواسطة هذه الملكة النفسية، ومن هنانفهم أن الملكات ليست واحدة بل تختلف من شخص إلى آخر تبعا لقدرته على تركيب الكلمات.

وبناء على هذا قالوا إن "كلمات الله تعالى النفسية إنما تنسب لله تعالى دون غيره باعتبار أنه تعالى هو الذى رتبها أزلا بطريق الإيجاد بصفة الكلام القائمةبذاته سبحانه التى تضاد الخرس الباطنى"[١٦]

ومن هنا نشأت مقولة النظم القرآنى ، الذى يخضع لتركيب خاص ، يجعل منه نصامعجزا الهيا، حيث يخضع الإعجاز اللغوى هنا إلى القدرة على تركيب الكلام تركيبافريدا.

إذن لقد ربط القدماء الكلام النفسى بمعيار التركيب ومن هنا أثبتوا للنظم بعدا نفسيا باطنيا باتصال النظم بهذه الملكة النفسيةالباطنية ، التى تمثل قدرة المتكلم على التركيب طالما كان النظم هو التركيب .

وعلى هذا فإن مصطلح التكلم فى النظرية العربية يشير إلى القدرة التركيبية التى تضاد الخرس الباطنى والتى لا تتقوم إلا من خلال هذه الملكة النفسية .

وهو بهذا يشبه مصطلح الكفاية لدى تشومسكى ، على أساس أن الكفاية عند تشومسكى هى " معرفة الانسان الضمنية بقواعد اللغة التى تقود عملية تكلم بها"[١٧]، "وبمفهوم أدق فالكفايةهى القدرة على إنتاج الجمل وفهمها فى عملية التكلم "[١٨]

---

(١٥) نفسه ، ص١٣.

(١٦) الاسنوى، نهاية السول ، ص١٣.

إذن النظرية العربية كانت أسبق من الفكر الغربى فى ترسيم مفهوم القدرة على التكلم والتركيب والذى قدمه الفكر اللغوى الحديث فى مفهوم الكفاءة اللغوية لدى تشومسكى.

كذلك فإنه لا يخفى أن مفهوم"الأداء عند تشومسكى هو الكلام"(١٩) ، على أساس أنه " الانعكاس المباشر لمفهوم الكفاية اللغوية "(٢٠)

وهو بهذا يتطابق مع المفهوم العربى للكلام على أساس أن الكلام فى النظرية العربية يمثل الفعل التطبيقى لهذه القدرة وهو يختلف من متكلم لآخرتبعا لقوة هذه الملكة النفسية الباطنة التى تسهم فى تشكيل قدرته على اختيار ألفاظ بعينها مواتيه للمعانى المطلوبة ، ومن هنا تتفاوت درجات الأداء تبعا لتفاوت الملكات فى القوة والضعف .

وبجانب ما سبق من تشابه ثنائية التكلم والكلام عند القدماء مع ثنائية الكفاءة والأداء عند تشومسكى ،فإن الافتراض الذى تفترضه نظرية تشومسكى من "أن الكفاءة توجد بشكل ما فى مكان ما فى عقل مستخدم اللغة وهى قدرته على الأداء بطرائق معينة وبالتالى فإن الكفاءة هى نموذج لما يفترض وجوده فى عقل المتكلم"(٢١)

أقول إن تشوسكى فى هذا يثبت لمفهوم الكفاءة معنى فطريا بجعله الكفاءة توجد فى مكان ما فى عقل المتكلم وهو ذات المفهوم الفطرى الذى أثبتته النظرية العربية لمفهوم الملكة.

وقد أجمعت الكثير من الآراء على أن ثنائية تشومسكى تمثل امتدادا لثنائية اللغة والكلام عند دى سوسيرعلى أساس " أن نظرة دى سوسير للغة باعتبارهاالقدرة الضمنية

---

(١٧) ميشال زكريا، الألسنية التوليدية والتحويليةوقواعد اللغة العربيةالجملة البسيطة،ط٢،بيروت،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،١٩٨٦، ص٣٣.

(١٨) ميشال زكريا، الألسنية علم اللغة الحديث : المبادئ والإعلام،ط٢، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،١٩٨٩،ص٢٦١ .

(١٩) خليل أحمدفايزة ، فى نحو اللغة وتراكيبها،جدة ، عالم المعرفة، ١٩٨٤،ص٥٨.

(٢٠) ميشال زكريا، الألسنية علم اللغة الحديث :المبادئ والإعلام،ص٤٦ .

(٢١) جمعة سيد يوسف ،سيكولوجية اللغة والمرض العقلى ، ص٤١ .

الخاصة بالعنصر البشرى ، والتى تسمح له بأن يتصل بأبناء مجتمعه تقابل مصطلح تشومسكى المعروف بالكفاءة.

أما تعريفه للسان بأنه جزء معين من اللغة أو هو بالأحرى تحقيق لها فى مجتمع ما أو لدى شعب معين [فهوأيضا] يقابل مصطلح الأداء عند تشومسكى "(٢٢)

وعلى هذا ، يمكننى القول إن النظرية العربية كانت أسبق من كل من دى سوسير وتشومسكى فى تفنيد العلاقة بين القدرة و الأداء ، أو القاعدة والتطبيق ، بحيث يمثل هذا الفهم فى علم اللغة الحديث امتدادا للفهم العربى القديم .

وإلى جانب ثنائية التكلم والكلام فقد تطرق القدماء إلى مفهوم المعنى النفسى، وهوالمعنى الذى يدل عليه لفظ نفسى معين أى أن " اللفظ النفسى يدل على معناه بلا فكاك"(٢٣)

وكما سبق أن أشرت ، فإن هذا المعنى النفسى لا يستطيع أن يصل إلى المستمع إلا من خلال التقوم فى كلمات لفظية على أساس أنه " لا يمكن الاطلاع على ذلك الكلام النفسى إلا بوضع الألفاظ التى تدل على مايدل عليه الكلام النفسى ، فيضع الألفاظ للمعانى التى يدل عليها الكلام النفسى"(٢٤)

وقد عرف القدماء المعنى النفسى بقولهم إنه " نسبة بين مفردين قائمة بالمتكلم ونعنى بالنسبة بين المفردين أى بين المعنيين المفردين، تعلق أحدهما بالآخر، وإضافته إليه على جهة الإسناد الإفادى بحيث إذا عبر عن تلك النسبة بلفظ يطابقها ويؤدى معناها كان ذلك اللفظ إسنادا إفاديا "(٢٥)

"ومعنى قيام النسبة بالمتكلم ما قاله الفخر الرازى وهو أن الشخص إذا قال لغيره (اسقنى ماء)، فقبل أن يتلفظ بهذه الصيغة ، قام بنفسه تصور حقيقةالسقيا وحقيقة الماء

---

(٢٢) جمعة سيد يوسف ،سيكولوجية اللغة والمرض العقلى ، ص٤٧.

(٢٣) الالوسى ، روح المعانى ، ج١، ص١٧.

(٢٤) الاسنوى ،نهاية السول، ص١٥.

(٢٥) محمدبن أحمد الفتوحى الحنبلى ،شرح الكوكب المنير، تحقيق محمد الزحيلى _ نزيه حماد ،مكتبة العبيكان ،ط٢، الرياض ،١٩٩٧م، ج١، ص١١.

، والنسبة الطلبية بينهما ، فهذا هو الكلام النفسى والمعنى القائم بالنفس ، وصيغة قوله (اسقنى ماء) عبارة عنه ودليل عنه "(٢٦)

فى هذه الفقرة يضع الرازى ، مفهوما نفسيا للمعنى النفسى أو الذهنى ، هذاالمفهوم يعتمد على قيام التصور بالنفس قبل التلفظ باللفظ الدال على هذا المعنى.، وأشير إلى أن ما أشار إليه الرازى من أن المعنى النفسى ، قوامه التصوريشبه إلى حد كبير ماتحدث عنه علماء النفس المحدثين عن تقوم التفكير بالصورالعقلية.

حيث أجمع علماء النفس المحدثين ممن درسوا علاقة التفكير باللغة، على:"أن الصورة العقلية مكون هام لأفكار كثير من الناس، حيث غالبا ما يذكر العلماء والروائيون والشعراء أنهم بدأوا أعمالهم من خلال صور فى عقولهم .

... وقد بدأ علماء النفس فى وقت أحدث فى الدراسةالمعملية الجادة للتصور العقلى وتوضح التجارب بصورة مقنعة تماما أن الأفراد يقومون بتكوين صورعقلية... [حيث] يبدو أن التفكير يكون مصاحبا بطرز مختلفة من التصور تتضمن التصورالبصرى والسمعى واللمسى .

... والأفراد المكفوفون خلقيامنذالولادة يتعلمون الاعتماد على الصور غير البصرية، ليحكموا على الأشياء ...ومن المحتمل ، أن يكون بيتهوفن نفسه قد استعمل الصور السمعية فى تأليف سيمفونيته التاسعة العظيمة بعد أن أصبح أصم تماما "(٢٧)

إذن لقد ربط القدماء بين المعنى النفسى والتصور العقلى على أساس أن العلاقات القائمة بين الصور العقليةهى تلك العلاقات التى يتقوم بها المعنى النفسى .

والملاحظ أن هذه القضية المذكورة عند القدماء هى نفس القضيةالتى تطرق لها علم اللغة النفسى الحديث ولكن القدماء كانواأسبق بإثبات فكرة التصور العقلى بوصفها قواما للمعنى النفسى بمعنى أننا نفكر من خلال مجموعة من الصور العقلية .

---

(٢٦) نفسه ، ص١١.

(٢٧) لندا . ل. دافيدوف ،مدخل علم النفس ، ترجمةسيد الطواب.القاهرة ، الدار الدولية للنشر ، ط٣ ،١٩٨٨ ص ٣٨٣-٣٨٤ .

وفى مرحلة أخرى من مراحل التفكير ، تحدث القدماء عن علاقة اللغة بقضية أخرى هى قضية الفهم. ذلك أن المتكلم إذا استطاع أن يعبر عن هذا المعنى الذى يتقوم فى نفسه من خلال النسبة أو العلاقة بين الصور العقلية ، بلفظ يطابقها تماما ، أصبح هذا اللفظ إسنادا إفاديا.

فالإسناد الإفادى مصطلح لغوي يعد معيارا للفهم وهو معيار يحمل جوانب نفسية، بوصف علاقة الإسناد هنا بين الكلام النفسى والكلام اللفظى، كما أنه يحمل جوانب تداولية لأن الفهم هو قوام التواصل ومناط التأثير بين المتكلم المستمع.

وقضية الفهم عندالقدماء قضية متشعبة بين النفسى والتداولى ، ذلك أن القدماء قد رأوا أن " تعلق الكلام النفسى هو تعلق دلالة لا تعلق تأثير " بمعنى أن الكلام النفسى لايؤثرفى المتلقى ، ولكى يؤثر الكلام النفسى فى المتلقى يجب أن يوضع للمعنى النفسى لفظ يواتيه ويدل عليه بدلالة تطابق ، لكى نصل إلى عملية الفهم .

وقد سبق أن أشرت إلى أن موافقة اللفظ للمعنى أى مدى مطابقةاللفظ للمعنى النفسى تمثل إسنادا إفاديا وترتفع قيمةهذا الإسناد الإفادى كلما زادت درجةالتطابق بين المعنى النفسى واللفظ الموضوع له..

ومن هنا قال القدماء ،إن الكلام النفسى يتعلق بالكلام اللفظى "تعلقاتنجيزيا"[٢٨] ، بمعنى أن النشاط النفسى اللغوى يتحول من الحالة الدلالية إلى الحالةالتأثيرية من خلال الفعل الإنجازى.

على أساس أن الكلمات اللفظيةتمثل الحالة الإنجازية للكلمات النفسية ، ومن هنا يتصل التعلق الإنجازى بقضية الفهم ، ومن هنا قال القدماء إن " للكلام النفسى وجودا باعتبار ذاته ووجودا باعتبار التلفظ "[٢٩].

ولا شك أن التعلق الإنجازى أوالتنجيزى بهذاالمعنى المشار إليه يمثل مفهوما لغويا نفسيا و تداوليا فى ذات الوقت.

(٢٨) نهاية السول شرح منهاج الوصول ، ص٨ .

(٢٩) نهاية السول فى شرح منهاج الوصول ، ص٦

فهو نفسى باعتبارأصل الحالة التى نشأ عنهاهذا التعلق بوصفها حالة نفسية باطنية متعلقه بكلمات نفسية غيرمعلومة ، ثم إنه تداولى باعتبارالحالة التأثيرية المنجزة بالتحول من اللفظ النفسى إلى اللفظ المنطوق.

بحيث يتحول الكلام النفسى من تلك الحالة الدلالية غير المعلومة داخل النفس وهى حالة لا تحمل أى نوع من التأثير فى المستمع كونها حالة باطنية ، إلى حالة تأثيرية لها دور فى إتمام التواصل بين المتكلم والمستمع ولها دور فى إنجاز عملية الفهم .

وبالإضافة لماسبق أشيرإلى أن القدماء قدأثبتوا لمقولة الفهم معيارا لغويا نفسيا أو معيار نفس لغوى، هذا المعيار يقيس مدى مطابقة الكلام النفسى للكلام اللفظى، وكلمازادالتطابق بين الكلامين كلمااكتملت عمليةالفهم .

والحقيقةإن هذاالمعيار يسهم فى تحديد الكفاءة التواصلية للكلام اللفظى، ومصطلح الكفاءة التواصليةهو ذلك المفهوم الذى قدمه هابرماس فى علم اللغة" حيث طور هابرماس مفهوم الكفايةاللغويةلدى تشومسكى إلى مفهوم الكفايةالتواصلية"(٣٠)

لقد رأى هابرماس أن " اللغة هى الوسط الذى يمكن أن يتحقق فيه نوع من التفاهم ومن خلاله يستطيع الشركاء التعامل مع مزاعم الصدق التى يمكن الاتفاق عليها أو الاختلاف حولها"(٣١)

بمعنى أن الكفاية اللغوية عند هابرماس "تعتمد على أن يتم التعبير عن هذا الواقع بطريقة صحيحة نحويةوصادقة وكل هذا بهدف إقامة علاقات متداخلة بين الأشخاص والتعبير عن الذات بطريقة صادقة"(٣٢)

وعلى هذا يمكن القول إن معيار المطابقة بين الكلام النفسى واللفظى يمثل معيارا خاصا بالكفاءة التواصلية يتصل بصدق الرسالة ووضوحها.

---

(٣٠) جلال شمس الدين ، علم اللغة النفسى ، ص٩.

(٣١) نفسه ، ص١٠.

(٣٢) نفسه ، ص١١.

ومرجع هذا إلى خصوصية النص الدينى وهو القرآن الكريم وذلك أنه فيمايخص القرآن الكريم تتحتم ضرورة أن يكون الكلام اللفظى "موافقا للكلام النفسى بمعنى الكلمات النفسيةالأزلية لإفادة المتكلمين وإفهامهم حيث لا اطلاع لهم على الكلام النفسى بذلك المعنى ، فكل من النفسى واللفظى دليل للحكم بمعنى الوجوب والحرمة وأخواتهما مما هو صفة لفعل المكلف"(٣٣)

إذ إن ضرورةالالتزام بالأوامرالتكليفية الشرعية الخاصة بالأوامر والنواهى الإلهيةتفرض ذلك المعيارلأنه إذا قيل بعدم التطابق بين النفسى والأزلى سيؤدى هذاإلى فساد الفهم وضياع الدلالة التشريعية.

وعلى هذا يمكن القول إن معيار المطابقة بين الكلام النفسى واللفظى يمثل معيارا خاصا بالكفاءة التواصلية يتصل بصدق الرسالة ووضوحها.

وإلى جانب قضية الفهم وعلاقتها بعلم اللغة النفسى لدى القدماء ، أشير إلى أن من أهم قضايا علم اللغة النفسى التى ناقشها القدماء، هى قضية الكلام وعلاقته بالإدراك.

لقد رأى القدماء " أن الوضع للشئ فرع عن تصورة فلا بد من استحضار صورة الانسان مثلا فى الذهن عند إرادة الوضع له "(٣٤) ، وهو ما أشرت إليه سابقا من إقرار القدماء لمقولة أن التفكير يتم من خلال الصور العقلية .

وهذا التفكير أدى بهم إلى القول إن " هذه الصورة الذهنية [للانسان] هى التى وضع لها لفظ الانسان لا الماهية الخارجية والدليل عليه أنا وجدنا اللفظ دائرا مع المعانى الذهنية دون الخارجية "(٣٥)

وأشير إلى أن حديث القدماء عن دوران اللفظ مع المعانى الذهنية لا الخارجية ، هو حديث عن الإدراك لأن دوران اللفظ مع المعانى الذهنية يعنى أن اللفظ يتغير تبعالتغيرإدراك الذهن للشئ الخارجى وليس تبعا لتغير الشئ الخارجى نفسه.

وفى هذا يقول الاسنوى مدللا على هذا المعنى :

---

(٣٣) اللباب فى علوم الكتاب ، أبى حفص عمرين عادل الدمشقى، ت.عادل أحمد عبدالموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١ ،١٩٨٨م، ج١ ، ص٥٥٧.

(٣٤) نهايةالسول، الاسنوى ، ص١٦.

(٣٥) نهاية السول ،الاسنوى ، ص١٦.

"بيانه إنا إذا شاهدنا شيئا فظننا أنه حجرأطلقنا لفظ الحجر عليه فإذا دنونا منه وظنناه شجرا أطلقنا اسم الشجر عليه ثم إذا ظنناه بشرا أطلقنا اسم البشر عليه، فالمعنى الخارجى لم يتغير مع تغير اللفظ فدل على أن الوضع ليس له بل للذهن "(٣٦)

فى هذه الفقرة يتحدث الاسنوى عن تطور اللفظ تبعا لتطور الإدراك ، وتعد قضية تطور الإدراك إحدى القضايا المهمة فى علم النفس الحديث ، والتى أشار إليها علماء النفس المعنيون بدراسة علاقة اللغة بالتفكير ، حيث رأى علماء النفس:

"أن الناس يختلفون بصورة ما فى رؤيتهم اللون وتمييز الأصوات ...والإدراك يتطور تطورا فرديا أكثر مما يفترض عادة ."(٣٧)

وقد عرف علماء النفس الإدراك " بأنه عملية تنظيم وتفسير المعطيات الحسيةالتى تصلنالزيادة وعينا بما يحيط بنا وبذواتنا"(٣٨)

وفى الفقرة السابقة يتحدث الاسنوى عن اختلاف اللفظ تبع لاختلاف الظن الذى يتبع الإدراك الشخصى ومراحل تطوره، فالانسان الذى رآه المتكلم لم يتغير ولكن الذى تغير هو إدراك المتكلم الذى تطور تبعالاختلاف المسافة التى يرى من خلالها.

ومن هنا اتفق القدماء مع مقولة علم النفس الحديث القائلة " إن الإدراك لا يعكس الحقيقة "(٣٩) وإنما يعكس علاقة المتكلم بالواقع ، وهو ماعبر عنه الاسنوى بقوله أن اللفظ يدل:

"على معنى ذهنى خارجى أى له وجودفى الذهن بالإدراك ووجود فى الخارج بالتحقق"(٤٠)

فجعل الوضع للفظ مشتركا بين النفسى والخارجى من خلال عملية الإدراك . والحقيقة أن الاسنوى هنايلتقى مع أحد مفاهيم علم النفس الحديث الخاصة بالإدراك وهى أن الإدراك يمثل" نقطة التقاء المعرفة بالواقع"(٤١)

---

(٣٦) نهاية السول،الاسنوى ، ص ١٦.

(٣٧) مدخل علم النفس ،ليندا دافيدوف ، ص ٢٤٥.

(٣٨) مدخل علم النفس ،ليندا دافيدوف ، ص٢٤٦ .

(٣٩) مدخل علم النفس ، ص ٢٤٧.

(٤٠) نهاية السول ، ص١٧.

(٤١) مدخل علم النفس ، ٢٤٨.

فاللفظ المشترك بين المعنى النفسى والعالم الخارجى هو نتاج لتفاعل النفس مع هذا الواقع من خلال عملية الإدراك.

ومن هنا كانت عملية الإدراك تبعالهذا الفهم هى حلقة الوصل بين النفس والخارج أو حلقة الوصل بين الوجود الذهنى والعالم الخارجى.

أما السيوطى فقط جعل الوضع للألفاظ " ملحوظاللواقع"(٤٢) أى أن الوضع يتنوع مابين الذهنى(النفسى) أو الخارجى تبعا للواقع أى الحدث أو الموقف بمعنى " أنه لم يعتبر تعينه[أى المعنى]فى الذهن أو الخارج قيدا فى الموضوع له"(٤٣)

وهو بهذا قد أخضع الذهنى (النفسى) للتداولى فأصبح وضع اللفظ للمعنى تابعا للموقف أو الحدث الاتصالى ، فالموقف أو الحدث الاتصالى قد أصبح هو المحدد لذهنية المعنى أوخارجيته. وعلى هذا فقد أثبت السيوطى للمعنى مفهوما تداوليايتكئ على دلالة الموقف.

ولعله قد استبان لنا من السرد السابق ،أن النظرية اللغوية العربية لم تكن بمعزل عن الفهم النفسى للغة.

وأن العلماء العرب كان لهم دورا كبيرا فى طرح قضايا لغوية نفسية تتصل بعلم اللغةالنفسى بالمفهوم الحديث.

حيث ابتكر العلماء العرب ثنائية التكلم والكلام والتى قسموها إلى شقين نفسى ، ولفظى، وعلاقة هذه الثنائية بثنائية القدرة والأداء لدى تشومسكى واللغة والكلام لدى دى سوسير.

إلى جانب إثباتهم لمفهوم الوجودالذهنى وهو مفهوم نفسى يشبه إلى حد كبير مفهوم البنية العميقة عند تشومسكى .

كذلك ترسيمهم لمصطلحات ذات طبيعة نفسية مثل مصطلح الإسناد الإفادى الذى يسندالكلام اللفظى إلى الكلام النفسى .

---

(٤٢) نهاية السول ، ص١٧ .

(٤٣) نفسه ، ص١٧.

ثم ابتكارهم لمعيارنفس لغوى هو معيارالتطابق بين النفسى واللفظى ودور ذلك فى إرساء عملية الفهم وعلاقة ذلك بمصطلح الكفاءة التواصلية عند همبولدت.

بالإضافة إلى تفنيدهم لعلاقة اللغة بالتركيب ووصل هذه العلاقة بالمفهوم النفسى من خلال إثباتهم أن لكل انسان متكلم ملكة نفسية تتحكم فى قدرته على تركيب الكلمات ونظم الجمل.

كذلك فقد تطرق القدماء إلى مقولات علم النفس الحديث مثل مقولات الادراك والصور العقلية وعلاقة ذلك بالتفكير والوضع اللفظى .

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. الاسنوى،الامام جمال الدين عبدالرحيم بن الحسن الشافعى القاهرة ، عالم الكتب ،د.ت.

٣. الألوسى ، شهاب الدين السيد محمود ، روح المعانى فى تفسير القرآن الكريم والسبع المثانى ،القاهرة ، المطبعة المنيرية .

٤. الحنبلى ،محمد بن أحمد الفتوحى ، شرح الكوكب المنير، تحقيق محمد الزحيلى ـ نزيه حماد ،مكتبة العبيكان ،ط٢، الرياض ،١٩٩٧م.

٥. دافيدوف ، ليندا ، مدخل علم النفس ، ترجمة سيد الطواب ،الدار الدولية للنشر والتوزيع ،ط٣، القاهرة ، ١٩٨٨ ٦.الدمشقى ، أبى حفص عمر بن عادل ،اللباب فى علوم الكتاب، ت.عادل أحمدعبدالموجودبيروت،دارالكتب العلمية،ط١

٧. فايزة ، خليل أحمد،فى نحو اللغة وتراكيبها،جدة، عالم المعرفة ، ١٩٨٤

٧. زكريا ، ميشيل ، الألسنية علم اللغة الحديث : المبادئ والإعلام،ط٢بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،١٩٨٩.

٨. شمس الدين ، جلال ، علم اللغة النفسى المناهج والنظريات ، الأسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ٢٠٠٣م.

٩. العصيلى ، عبدالعزيز بن إبراهيم،النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية ، الرياض ، مطابع التقنية، ١٤٢٠هـ

١٠. يوسف ،جمعة سيد، سيكولوجية اللغة والمرض العقلى ، الكويت ، عالم المعرفة ، ١٩٩٠